فريد البيدق

القيم

دراسة مقارنة بين قصة عقلة الإصبع

وقصة علي مبارك (٢)

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القيم .. دراسة مقارنة بين قصة عقلة الإصبع بالــ ٥ ب وقصة علي مبارك بالــ ٦ ب

– سلبيات قصة "علي مبارك"– الجزء الأول

فريد البيدق

(١)

أشرت في الجزء الأول من هذه الدراسة المعنون بـــ(**القيم.. دراسة مقارنة بين قصة عقلة الإصبع بالــ ٥ ب وقصة علي مبارك بالــ ٦ ب–١**) والمنشور في ٢٠١٧/٤/١٧م إلى ما تحتويه قصة "**مغامرات في أعماق البحار**" المقررة على الصف الخامس الابتدائي من قيم إيجابية. وهنا أشير إلى نقيض ذلك في قصة "**علي مبارك.. رائد النهضة الحديثة**" المقررة على الصف السادس الابتدائي.

كيف؟

بدأت في الجزء الأول بإيراد مقدمة المعدلين التربويين التي تنسجم مع ما ورد في القصة، و لم أورد مقدمة المؤلف؛ لأنها متضمنة في مقدمة المعدلين التربويين.

وهنا أورد المقدمتين اللتين تصدرتا القصة؛ لنرى معا أتتفق مع ما سيرد من نقود على محتواها أم لا.

ماذا فيهما؟

تقول المقدمة الأولى ص٣: (**في حياة كل أمة علماء بارزون وقادة موهوبون وأدباء مبدعون ومصلحون مشهورون، ممن أعدهم الله ليكونوا قدوة طيبة ومصباحا منيرا لكل من ينشد حياة طيبة آمنة لنفسه ورقيا وازدهارا لوطنه وأمته. ويسرنا أن نقدم لأبنائنا – تلاميذ الصف السادس الابتدائي– كتابا تضيء صفحاته سيرة ابن بار من أبناء مصر العربية وعلم من بارز من أعلام نهضتها الحديثة ورائد مخلص في مجال العلم والتعليم، ألا وهو علي مبارك الذي عاش حياة حافلة بالعمل الجاد غير عابئ بما يصادفه من عقبات، عطاؤه متجدد على مر الزمان. نقدمه لأبنائنا ليكون لهم مثلاً أعلى في قوة الإرادة وصلابة العزيمة والسعي الجاد من أجل تحقيق الهدف الأسمى والمستقبل المنشود. والحق أن علي مبارك شخصية جديرة بالدراسة فقد اجتمعت فيه مقومات قل أن تجتمع لسواه وتوافرت له صفات لا توجد إلا في العباقرة الأفذاذ**).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم تقول مقدمة المؤلف ص٥: (**هذه صورة مشرقة لحياة بطل عظيم من أبطال مصر قاد شعبه نحو النور والتقدم، وتحمل في سبيل ذلك مشاق ومتاعب لا يتحملها كثير من الناس. ومضى يشق الصخر بأظافره الحادة ويدفع بصدره العوائق التي تصده حتى استقام له ما أراد واستوى على قمته. ولم يكن له من سلاح إلا سلاح العلم تسلح به ثم نشره بين أبناء الشعب وصبر على ذلك حتى ظهرت ثمار ذلك نهضة حديثة عمت أرجاء البلاد وآتت أكلها في كل مكان واستحق بذلك أن يكون رائد النهضة الحديثة في مصر الغالية**).

ونسلم لهم بما قالوه عن الشخصية، فهل نجحوا في إبراز ذلك فيما كتبوه ونقلوه إلى التلميذ أو القارئ المتلقي؟

لا.

لقد أبرزوا قيما سلبية كثيرة ومتعددة، وقد كتبتها قبلا في ثلاث عشرة مقالا أنقل هنا خلاصتها، كل مقال بعنوانه وملخصه. وسيكون ذلك على جزأين هذا أولهما.

(٢)

١- تلويث القيم في المخرج التعليمي للقصص التربوي

اختارت هذه القصة "علي مبارك" شخصية لها، وحاولت من خلاله بث ما يراه المؤلف من قيم، لا سيما أن هذه الشخصية ارتبطت بالتعليم في تاريخ التعليم في مصر.

ومن يتصفح هذه القصة، ويقرؤها ببعض تأمل يجد الخلل الأدبي الذي يفرز تسويئا للقيم داخل أذهان هذا النشء المقصود تعليمه إياها.

كيف ذلك؟

اختار الكاتب لقصته وجهة نظر الغائب التي تروي الأحداث على ألسنة شخصيات العمل.

وفي هذه الرؤية ينبغي للمؤلف أن يخفي ذاته، ويجعل الشخصيات تتحدث عن نفسها؛ لأنه لو لم يفعل لانقلب العمل الفني إلى عمل عقلي أو وعظي أو فكري... إلخ وخلا من الفنية والأدبية.

وهذا ما وقع فيه الكاتب؛ مما جعل قصته أدبيا غير جيدة، وتربويا سيئة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كيف؟

في الفصل الثاني نراه يقحم صوته ورأيه ووجهة نظره في الحوار والسرد.

كيف؟

عُنون الفصل الثاني بـــ" عزة نفس، وطموح مبكر"، وهذا عنوان فيه مغالطة كبيرة، لكنني لن أقف معها فربما يكون العنوان مِن وضع معد القصة إعدادا تربويا إن كان هناك معد.

ماذا سأفعل؟

سأقف مع عبارات الكاتب التي تنقل لنا عداء مع أهل القرآن، وتذكرنا بموقف طه حسين من شيوخه في الأزهر في قصته "الأيام".

كيف؟

قال الكاتب في ص٢١ واصفا شيخ الكُتّاب الذي ذهب إليه علي مبارك: "عندما ذهب الصبي إلى الشيخ أبي خضر في كتابه وجده كاشر الوجه، قاسي الطبع، بجانبه عصا غليظة".

ولن أكرر أن ذلك يعيدك إلى وصف طه حسين لشيوخه.

ثم يمضي الكاتب فيُظهر لنا "علي مبارك" فيلسوفا تربويا على الرغم من أن عمره ثماني سنوات حسب ترتيب الأحداث الذي اختاره المؤلف.

كيف؟

يقول على لسان علي مبارك بعد أن مهد شر تمهيد بقوله: "فكره الشيخ"، فيجعل ذهن التلميذ مستعد لتقبل موقف الصبي وكره الطرف الآخر الذي يكرهه الصبي.

يقول: "وقال لنفسه في ألم شديد: هل يليق بالمعلم أن يكون بمثل هذه القسوة؟ وهل جئنا إلى هنا لنتعلم الجبن والخوف؟".

من يتكلم هنا؟ أهو علي مبارك؟ أم هو المؤلف الذي يبارك ما قررته وزارة التربية والتعليم من تحريم العقاب البدني تأثرا بما قرره الغرب؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إنه هنا بوق دعائي لقرار الوزارة التي اختارت كتابه لتدريسه لنشء مصر، إنه بوق دعائي لا يعرف ألف باء التربية التي تقول: "مَنْ أمِن العقوبة أساء الأدب وكرر الإساءة". والتي تقرر الثواب والعقاب كليهما لا واحدا منهما فقط حتى تستقيم التربية، ووجود الثواب والعقاب أمر لازم لا للتربية فقط بل للحياة نفسها.

ما يلائم سياق القصة فنيا وتاريخيا أن يخاف الصبي، وأن يحاول تفادي الضرب بالاجتهاد كما قرر في ذيل الصفحة ذاتها. أما أن يفلسف خوفه في سنة ١٨٣١ حسب ما يفيده ترتيب الأحداث التي اختارها المؤلف- فهذا ما لا يكون فنيا وأدبيا صحيحا؟

لماذا؟

لأن هذه الفلسفة لو قالها طفل الآن لقلنا: إنه تأثر بالتلفزيون وأفلامه ومسلسلاته وغير ذلك من وسائل الإعلام. أما في هذا التاريخ المبكر الذي لم يكن فيه إلا الكتاتيب ومن بعدها الأزهر الذي لا يتاح للكثيرين - فإن الأمر بعيد بعيد.

وفي حمأة حماسة المؤلف لقرار الوزارة نسي أمرا لا ينبغي له أن ينساه.

ما هو؟

أن الضرب لا يكون عنوان إهانة ومذلة هكذا قولا واحدا، إنما الضرب قسمان: أحدهما مهين، والآخر تأديب وتعليم. ومن النوع الثاني ضرب الوالد ولده وضرب المعلم تلميذه.

نسي المؤلف تلك الحقيقة فاستمر يذيع آراءه على لسان الصبي.

أين كان ذلك؟

في حوار الصبي مع أبيه الذي يحاول رده إلى الكُتَّاب مرة أخرى لتثبيت الحفظ ص٢٣.

كيف؟

يقول في سردٍ منحازٍ إلى ما يراه هو: "فانفجر الصبي صائحا في قوة وعزم".

هكذا يكتسب الطفل ذو ثمانية الأعوام القوة والعزم والانفجار مع أبيه الذي يوجهه؛ لتثبيت حفظ كتاب الله!

أهذا قوة وعزم؟ أم هذا قلة تهذيب وانعدام أدب؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أترك الجواب للمؤلف ومن يقرأ القصة!

وبعد هذه القوة والعزيمة جعل الكاتب الصبي يقول: "وأعود مرة أخرى إلى العصا الغليظة والمعاملة القاسية، وأتعلم الخضوع والمذلة والجبن؟ لا، لن أعود أبدا إلى ذلك الشيخ".

لا أدري المسوغ الفني لإعلان هذا الرأي الفج؛ فإن ضرب المعلم ليس مذلة ولا يعلم الجبن إلا في الأفلام والروايات التي تجعل من الكبت النفسي حبكة لها تأثرا بفرويد، فهل تأثر بها المؤلف؟ قد يكون.

ويستمر التلويث بالألفاظ الحكمية التي يستعملها الكاتب في سرده.

كيف؟

بعد هذه الثورة الفلسفية يصف الكاتب رد فعل الأب قائلا ص٢٤: "لكن الأب العاقل الحكيم أدرك ما في نفس الصبي، وقرأ ما في وجهه من علامات التمرد، فخاف أن تلجئه الشدة إلى الهروب".

هكذا كانت الأسر المصرية عام ١٨٣١ كما يتصور الكاتب المتأثر بالأفلام الأمريكية!

ولا يدع المشهد حتى يضفي على سوء أدب الصبي حسنا وجمالا عندما جعل سرده على هذا النمط "وتنبه أحد إخوة الصبي إلى تفتحه، وقوة نفسه".

إن ما فعله الصبي من تفلّت تفتح وقوة نفس!

يا لسوء المخرج التعليمي لمن يتأثرون بهذه الشخصية!

واستمر ذلك الموقف المنحاز لمواقف الصبي "علي مبارك" مع تجربته الثانية مع الكاتب الذي لم يكن حظه معه أفضل من حظ الشيخ السابق؛ فقد شكاه، وتحدث عنه حديثا لا يليق بمتعلم عن معلمه.

وعندما نهره الأب جعله الكاتب مخطئا في ص ٢٩ عندما قال: "وفات الشيخ مبارك أن يقرأ ما في وجه صغيره كما قرأه في المرة السابقة".

ولا يقتصر خطأ الأب على الغباء فقط بل امتد إلى العناد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كيف؟

يقول الكاتب في الصفحة ذاتها: "و لم يسرع الشيخ مبارك إلى ترضية صغيره وتهدئة نفسه".

هكذا يصبح كل من حول الصبي أصحاب خطأ وتقصير، أما الصبي فلا!

بعد هذه النماذج من الفصل الثاني الذي يمتد بين ص١٧ وص٣٢، والذي يمتلئ بنماذج أخرى تجعل الصبي فيلسوفا وحكيما، ومَن حوله أغبياء معاندين- أسأل: ما القيمة التربوية من تعليم نشء مصر هذه القصة؟ إن الشخصية تستحق أن يعلم عنها النشء وغير النشء، لكن ليس بهذا الأسلوب، ولا بهذا الفكر.

(٣)

٢- المبالغة في رسم شخصية "علي مبارك" زمن طفولته

في الأدب التاريخي يختار الأديب الشخصية التي تمثل موضوعه، فيبرزها ويبرز من خلالها موضوعه. وقد يرسمها من دون مبالغة، وقد يبالغ حتى يثبت أنها جديرة باختياره. وقد تكون هذه المبالغة مسوّغة، وقد لا تكون. ومن هؤلاء الذين بالغوا في رسم شخصية عملهم الأدبي مؤلف قصة "علي مبارك" المقررة على الصف السادس الابتدائي.

كيف؟

في عمر التاسعة أو العاشرة من حياة "علي مبارك" على وفق تسلسل الأحداث الذي رضيه المؤلف، وبعد أن هرب الابن من أسرته، وبعد عودته إليها وخضوع الأسرة بدءا من الأب له- نرى الحوار الآتي بين الابن وأسرته.

قال الكاتب ص٣١ في نهاية الفصل الثاني: "فلما حضر مع أخيه لم يظهروا له الغضب، وعرضوا عليه التعليم برقة، فصاح في مرارة:

- صدقوني أيها الناس، لا فائدة من تعليمي بهذا الشكل؛ فلم أستفد من المعلم الأول، و لم ألق سوى الضرب والإهانة والسب والشتم".

يقول هذه الخطبة على الرغم من إقرار الكاتب في مفتتح ص٢٢ بأنه حفظ القرآن الكريم وأتم المرة الأولى من الحفظ التي تسمى البداية، فهل حفظ القرآن الكريم ليس استفادة؟ هكذا رأى الكاتب عندما أراد أن يبالغ في رسم شخصيته وجعله إياه فيلسوفا تربويا.

ثم تابع الكاتب خطبة الطفل "علي مبارك" قائلا: "و لم أستفد من الكاتب و لم أشعر إلا بالضياع والإذلال وتشغيلي خادما".

لا أدري لِمَ يردد الكاتب كلمة الإذلال وحقلها الدلالي كثيرا؟ أيكون أمرا متصلا به؟ أم يكون أمرا متصلا بـــ"علي مبارك".

سيكون لبيان ذلك مقال منفرد إن شاء الله تعالى.

ويستمر الحوار لنجد الأب مستسلما يقول له في ص٣٢: " وما رأيك يا علي في أن تعمل مع كاتب من الكتاب الذين يقيسون الأراضي للفلاحين، يعلمك قياس الأراضي وتوزيعها، وذلك عمل نظيف مريح".

ونجد وضوح الرؤية عند الطفل "علي مبارك" عندما يرد على أبيه قائلا: "أجرب يا والدي هذا العمل أولا، فإذا أعجبني وإلا بحثت عن عمل آخر يعجبني ويرضي نفسي؛ فإني أود أن أكون من الكبراء، ولن أرض بغير ذلك أبدا أبدا".

ومن الغريب أن الكاتب وصف قائل هذا الكلام قبل أن يسرده قائلا: "قال الصبي في اعتزاز بنفسه".

وأسأل: هل يقول صبي هذا الكلام؟ وأترك الجواب للمؤلف ولمن يقرأ القصة.

وليس هذا الموقف من الأسرة والعمل هما جانبا المبالغة فقط، بل أبى الكاتب إلا أن يجعل الحكومة طرفا في إحداث هذه المبالغة.

كيف؟

عندما قَبِل "علي مبارك" العمل مع المسّاح الثاني بعد أن طرده المسّاح الأول لعدم حفظ أسرار المهنة – أخذ أجره منه على الرغم منه كما حكى الكاتب ص٤١ في الفصل الثالث المعنون بـــ"السجين المظلوم"، فماذا كانت النتيجة؟

يحكي الكتاب قائلا: "فثار الكاتب ثورة شديدة لذلك التصرف الجريء، وعزم على أن ينتقم من الصبي أشد انتقام".

هكذا عطل المسّاح عمله لينتقم من الصبي، الصبي!

كيف سينتقم؟ هل سينتقم بنفسه؟

لا.

كيف؟

يقول الكاتب: "فذهب إلى المأمور وأخبره بما حدث، فغضب هو الآخر وثار، واتفقا معا على الانتقام من هذا الولد الجريء الذي لا يخاف أحدا".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هكذا تفرغ المأمور للانتقام من هذا الصبي، الصبي!

فماذا فعل ممثل الحكومة التي دفع ظلمها أسرة "علي مبارك" إلى ترك وطنها أكثر من مرة؟

دبر مكيدة، وكأنه عاجز، وكأن "علي مبارك" قوة قاهرة!

كيف؟

يقول الكاتب في الصفحة ذاتها ٤١: "وفي هذا الوقت جاء إلى المركز طلب من الحكومة باختيار بعض الشبان للخدمة العسكرية، فانتهز المأمور الفرصة".

هكذا جاءت الفرصة إلى المأمور العاجز لينتقم من الصبي الجبار "علي مبارك"، فكيف نفذ المأمور؟

يستمر الكاتب قائلا: "دعا الفتى إليه وقال له في هدوء:

– تعلم يا علي أنني مسرور منك كثيرا، ولا أثق بأحد غيرك يقوم بالأعمال المهمة".

هكذا يمهد المأمور العاجز لحيلته للتمكن من هذا الصبي الجبار، فماذا فعل ليكمل الحلقة؟

يقول الكاتب ص٤٢: "تذهب إلى السجن مسرعا لتسجل أسماء من فيه، فمطلوب منا اختيار بعض الشبان للخدمة العسكرية، وعسى أن تجد بينهم من يصلح لها".

هكذا أتم المأمور العاجز حيلته، ونسي الكاتب أن يظهره وهو فرح بالقضاء على هذا الغريم، فاكتفى بقوله في الصفحة ذاتها: "وجازت الحيلة على الولد الطيب المسكين، وذهب مسرعا إلى السجن، فإذا برجال المأمور يحيطون به، ويضعون في رقبته قيدا من حديد، ويلقونه في السجن المظلم".

فهل هذه هي السلطة في هذا الزمن، وهل هؤلاء رجالها؟ إذا كانت كذلك وكانوا كذلك فأين الظلم الذي حكى عنه الكاتب في فصوله السابقة؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣- عندما يكون الكاتب تابعا لشخصيته الأدبية

إن علاقة الكاتب بشخصيات أعماله الفنية يجب أن يسودها احترام عقل القارئ المنضبط بضوابط الواقع، فإذا صادم الكاتب ذلك محاباة لشخصيته الأدبية فإن هذا يعد خللا فنيا يضر عمله.

كيف؟

عندما تكون مهمة الكاتب هي تسويغ مواقف شخصيته الأدبية المتناقضة من خلال تعليقه المباشر فإن ذلك يحيل عمله الفني إلى عبثية، ويجعله أضعف من شخصيته الأدبية، وتجعل عمله الأدبي ضعيفا.

وهل تحقق ذلك مع كاتب "علي مبارك"؟

نعم.

كيف؟

في صدر ص٤٠ في الفصل الثالث المعنون بـــ"السجين المظلوم" يسوغ الكاتب طرد الكاتب لـــ"علي مبارك" قائلا: "لأنه - أي علي مبارك - كان لصغره يتحدث إلى الناس ببساطة عما يأخذه الكاتب من الفلاحين، ولا يعرف خطر ذلك عليه".

هكذا يفشي الصبي "علي مبارك" أسرار عمل رئيسه، وبدلا من أن يعترف الكاتب بخطأ "علي مبارك" يلتمس له سخيف العذر الذي ينطبق عليه القول المشهور: "عذر أقبح من ذنب".

ولا نغادر الصفحة ذاتها حتى نفاجأ بأن "علي مبارك" الذي لم يتغير سنه لم يعد ذلك الصبي الساذج.

كيف؟

بعد ما أوردته بأسطر يقول الكاتب عن سبب ترك "علي مبارك" لصاحب العمل الجديد: "لكنه لم يستمر طويلا في هذا العمل؛ إذ وجد أنه يخدم هذا الكاتب بصدق وأمانة، ومع ذلك يأكل عليه أجره ولا يعطيه شيئا غير الطعام. ومكث على هذا الحال ثلاثة أشهر حتى ساءت حاله فعزم على أن يأخذ حقه بالحيلة".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هكذا نما وعي الصبي فجأة فأدرك أنه يخدم رئيسه بصدق وأمانة، هكذا على الرغم من خيانته الآخر قبل ذلك!

ولا يقف الأمر عند هذه الدرجة من الوعي، بل ينمو الوعي فيقرر "علي مبارك" أن ينتقم بتدبير حيلة.

وهل اقتصر هذا التحيز المباشر من الكاتب لنصرة شخصيته الأدبية بالباطل على زمن الصبا؟

لا.

كيف؟

بعد أن تقدم العمر بـــ"علي مبارك" وبعد أن تقلد مناصب كثيرة، وبعد خلع الخديو إسماعيل وتولية ابنه توفيق، وبعد نشوب الثورة العربية – نجد الكاتب يقول في ص١٠٩ في الفصل الثامن والأخير المعنون بـــ"أبو التعليم": "... حتى اشتعلت الثورة العرابية تطالب بالإصلاح وإنصاف المظلومين، واشترك فيها كثير من الناس من ضباط وغير ضباط".

ماذا يفيد كلام الكاتب السابق؟

إنه يُظهر صورة طيبة وجميلة لهذه الثورة، فهل كان هذا رأي شخصيته الأدبية علي مبارك؟

لا.

كيف؟

لم يشترك علي مبارك فيها على الرغم من أنها كانت لنصرة المظلومين، والمطالبة بالحقوق.

لماذا؟

لأنها خالفت مزاجه.

كيف؟

يقول الكاتب في الصفحة ذاتها: "ولم يشترك فيها علي مبارك لا بالانضمام إلى العرابيين ولا إلى توفيق، ولزم الحياد بين الطرفين المتنازعين؛ فقد كان بطبعه هادئا متمهلا في الوصول إلى مطالبه، يسعى إليها في تأن ورفق، لا يميل إلى العنف والاندفاع، بعيد الرؤية للأحداث ونتائجها".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هكذا عاد الكاتب فذم الثورة العربية نصرة لمزاج شخصيته الأدبية فوصفها بممارسة العنف الذي لا يحبه "علي مبارك" بعد أسطر من مدحها.

وهل اقتصر على ذلك؟

لا.

كيف؟

استمر في تسويغ موقف شخصيته فتابع في ص ١٠٩ و١١٠ قائلا: "يعلم الجميع أنه لا يهتم إلا بخدمة وطنه والعمل على ترقيته، ولا شأن له كثيرا بالصراعات التي يضيع فيها بعض الناس أوقاتهم دون فائدة".

هكذا بات العرابيون أناسا يضيعون أوقاتهم فيما لا فائدة فيه على الرغم من أنه وصفهم قبل ذلك بمناصرة الحق ضد الظلم.

ويبدو أنه أحس بأنه أساء إلى شخصيته الأدبية فبادر يقول في ص١١٠: "كان يميل إلى العرابيين ويوافقهم على فكرتهم في طلب حقوقهم، ويخالفهم في الوسيلة إليها".

هكذا كان "علي مبارك" معهم، بل كان أستاذا لهم.

كيف؟

يتابع الكاتب قائلا بعد الكلام السابق: "ويبين لهم الطريق الصحيح لبلوغها في هوادة".

فماذا حدث؟

رفض العرابيون رأيه، فجانبهم.

كيف؟

يتابع الكاتب قائلا: "قبيل أن يعلنوا الخروج واتخاذ القوة سبيلا إلى مطالبهم، فلما اتخذوا الطريق الذي لا يرضاه ولا تؤمن عواقبه لم يعد يناصرهم، ومضى في سبيله من الاعتدال والتوسط من غير أن يكون خصما لأحد".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هكذا يظهر الانحياز الكامل من الكاتب لنصرة شخصيته الأدبية؛ فموقفه هو موقف التوسط والاعتدال، أما موقف العرابيين فهو موقف التطرف والإرهاب. وأظن الكاتب بهذا يؤيد من يصف هذه الثورة بأنها "هوجة عرابي".

والسابق يجعله ضعيفا وتابعا على الرغم من كونه الأعلى والأقوى؛ لأنه المنشئ ولو كانت القصة قصة تاريخية!

(٥)

٤- وجه العلمانية في قصة "علي مبارك" التعليمية

يقول تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]، وقال: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ} [الحج: ٣٠].

ومن تعظيم شعائر الله إعلاء الدين، وبيان أنه يشمل غيره ولا يشمله غيره.

كيف؟

إذا أراد مصلح أن يرسم خطة إصلاح لينهض الوطن فلا بد أن يأتي الإسلام على رأس الخطة؛ فبه صار العرب أمة سادوا العالم، وبه حدث ما حدث مما هو معروف في تاريخ الحضارة الإسلامية.

كيف؟

الإسلام يحض المسلمين على كل عناصر القوة؛ فالله تعالى يقول: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠].

وهذا الإعداد يشمل الحياة بكل نشاطاتها ومناحيها، فإذا جاء مصلح وادعى أنه يضع خطة لنهضة المسلمين وجعل العلم الدنيوي هو الأساس ولم يشر إلى الإسلام ألبتة أو أشار إليه إشارة مجملة مصرحا به، أو أشار إليه إشارة مجملة من دون تصريح - فهو لا يعظم شعائر الله، وهو يفصل دنياه عن إسلامه، وهو بقدر هذا الفصل يكون علمانيا.

وهذا ما جَعلَنا مؤلفُ قصة "علي مبارك" المقررة على الصف السادس الابتدائي نحس به عندما أراد أن يبين فضل "علي مبارك" على التعليم في مصر في الفصل الثامن والأخير الذي عنونه بـــ"أبو التعليم".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كيف؟

يقول الكاتب ص١٠٥: "أسند إسماعيل إلى "علي مبارك" ديوان المدارس فيما أسند إليه من الأعمال الجليلة، فهب مسرعا بقوة وعزيمة صادقة يعمل في هذا الميدان الذي يهواه، ويجد في نفسه القدرة على أن يرتفع به؛ ليخلص الوطن مما هو غارق فيه إلى الأذقان من الفقر والتأخر والبعد الشديد عما جد في الدنيا من حضارة وارتقاء.

لا ينسى أنه ابن القرية المعذبة المحرومة من الحياة، يعرف أن الجهل المعشش فيها وفي غيرها هو سر البلاء وأصل الداء".

فكيف أظهر الكاتب رَسْم "علي مبارك" خطته بعد أن وضع يده على الداء؟

يقول الكاتب ص١٠٦: "لا يرتاب في أن التعليم الصحيح هو الدواء الشافي لكل ما يعانيه الوطن من التأخر والتخلف؛ فهو المصباح الذي ينير العقول ويقوي الأفهام. يقضي على الخرافات ويحطم سيئ العادات، ويبعث الحرية والشجاعة واحترام النفوس".

وهذا التصور لا غبار عليه إذا كان المحتوى التعليمي سيعتمد على الإيمان وإحيائه وتقويته في النفوس، فيجعلها مستشعرة ذاتها المتميزة التي ينبغي أن تسود الأمم فتفتح عينيها على كل جديد لتقوي بها ذاتها، فيجعلها ذلك تبذل الغالي والنفيس لتسود سيادة حقيقية.

فهل كان ذلك هو المراد؟

من يعرف الخديو إسماعيل وهوسه بأوربا ورغبته في جعل مصر جزءا منها بما فيها من ترف الدنيا، وما جره على مصر من ديون في مشروعات لا تفيد بلدا يريد أن ينهض كإنشاء الأوبرا – يدرك أن التعليم المتحدث عنه كان صوريا لا ينهض بأمة ولا يغير محتواها، بل يزيدها وَلَها بفارغ الدنيا وقشورها ويتمسك بها في ذيل الأمم، وهذا ما نحن فيه إلى الآن.

وكأن الكاتب أحس أن انفراد العلم ليس حلا فقال ص١٠٧:" يعرف أن الاقتصار على العلوم وحدها في التعليم لا يثمر الثمرة المرجوة منه، ولا بد مع العلوم من التربية الصحيحة؛ لإعداد الناشئين إعدادا سليما للحياة الجادة المستقيمة".

وهذا صحيح إذا كان عماد هذه التربية الإسلام وتعاليمه التي تفسح للمسلم الأفق، فهل أشار الكاتب إلى ذلك؟ لا، لم يوضح الكاتب مصدر هذه التربية الصحيحة، أيكون ما يأتينا من الغرب من تعلم الرقص والتبرج؟ أم يكون غير ذلك؟

لم يقل الكاتب شيئا، واكتفى بما سبق.

ثم مضى يضيف جزئيات لا تتصل بالمنهج واللب من جعله التعليم شعبيا واهتمامه بالتعليم الابتدائي، والاهتمام بالمعلم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم وقع الكاتب فيما كان لا بد أن يقع فيه.

فِيمَ وَقع؟

وقع في التناقض.

كيف؟

أظهر عجز الخطة الذي يؤكد عجز أي خطة تخلو من الإسلام معلنا ظاهرا!

كيف؟

يقول ص١٠٨: "يعتقد بحق – أي علي مبارك – أن المدرسة لا تؤتي ثمرتها المرجوة منها مع استكمال مقوماتها إلا إذا ارتقى الشعب معها؛ لتسير القافلة التعليمية كلها متناسقة الخطو فتبلغ الهدف المنشود".

هكذا بعد أن أظهر الكاتب بدءا أن التعليم هو الذي سينهض بالأمة جعله آخرا عاجزا إلا إن نهضت الأمة من دونه لتسايره.

وهو صادق كل الصدق في هذا.

لماذا؟

لأن الإسلام هو ما يرتقي بالأمة المسلمة، ويعطي لكل شيء أهميته من علم وغير ذلك من نواحي الحياة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥- تناقض أحداث الزمان والمكان الخارجيين في قصة "علي مبارك" المقررة على السادس الابتدائي

ما إن مضيت في صفحات الفصل الأول الذي لا يتعدى ست صفحات حتى فوجئت أن هناك تناقضا زمانيا مكانيا في هذا الحيز الورقي الضيق الذي لا يتسع إلا لست صفحات كلماتها حجمها كبير وفراغاتها كثيرة.

ما هذا التناقض؟

إنه عدم الاهتمام بإبراز تناسق خط الزمن الصاعد للأحداث.

لماذا؟

قد يكون أن ذلك حدث لأن الفصل الأول المعنون بـــ"عائلة المشايخ" الممتد من ص٧ حتى ص١٤

فصل تمهيدي للأحداث يعرفنا الشخصيات الرئيسة وبيئتها وأحوالها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية والإنسانية.

كيف كان ذلك؟

بدأ الفصل ص٧ بهذا النص "في عهد محمد علي الكبير كان الحكام يفرضون الضرائب الباهظة على الفلاحين، ومن يتأخر عن تسديد هذه الضرائب يجلد ويهان ويلقى به في السجن".

لماذا هذه البداية؟

حتى يوضح لنا أن أسرة الشيخ "مبارك" والد "علي" بطل القصة عانت من ذلك فتركت بلدها مرتين في هجرة داخلية لم تنته.

كيف؟

نتيجة هذا الظلم السياسي نما الحدث الدرامي الواقعي في ص٩ كما قال المؤلف: "وفي قرية من قرى مديرية الدقهلية تسمى "برنبال الجديدة" استقرت فيها أسرة الشيخ "علي مبارك" بعد فرارها من قريتها الأولى "الكوم والخليج" على بحر طناح.

وبعد صفحتين ونصف طوف بنا فيهما الكاتب في بيان تصاريف القدر مع عائلة "علي مبارك" صعودا قبل ولادة "علي مبارك" وهبوطا بعدها، قال ص١٣: "وأمام هذا العذاب الذي يترل بمن لا يسددون أو يتأخرون عن السداد اضطر الشيخ مبارك أن يبيع كل ما يملك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حتى أثاث المترل، لكن ذلك كله لم يف بالضرائب ... فلم يبق أمام الشيخ الكبير إلا أن يصنع ما صنع أجداده حين فروا من قرية الكوم والخليج".

كان السياق ناميا نموا طبيعيا فنيا وواقعيا حتى جاءت كلمة "أجداده"، فجعلت المؤشر ينحرف، وجعل التناقض يصرخ.

كيف؟

كانت هجرة هؤلاء الأجداد في زمن "محمد علي الكبير" كما جاء في جملة مفتتح الفصل، ومعلوم أن محمد علي ولي مصر ١٨٠٥م، ومعلوم أن هجرة الشيخ "مبارك" والد "علي" كانت ١٨٢٩م؛ لأن عمر "علي مبارك" لحظتها كان ست سنوات كما أبان الكاتب نهاية ص١٣، وقد نص المؤلف ص١٠ أن "علي مبارك" ولد ١٨٢٣م الموافق ١٢٣٩هـ.

وبعملية طرح يسيرة نجد أن الزمن بين بدء "محمد علي الكبير" والهجرة الثانية ٢٥ سنة فقط، وهذه الخمس والعشرون لا تسمح بأن يكون المهاجرون الأوائل أجدادا للشيخ "مبارك" إلا إن كانت هذه الهجرة قد تمت قبل زمن "محمد علي الكبير" بزمن طويل.

لماذا؟

لأن الكاتب قال ص٩ ما يوحي بأن الإقامة في "برنبال الجديدة" كانت طويلة.

ماذا قال؟

قال: "وقد طابت الحياة لأسرة علي مبارك في مقرها الجديد، وكثر عددها حتى قاربوا المائتين، وعرفوا باسم عائلة المشايخ؛ فقد كان فيهم المشايخ ... وكان منهم القضاة ... والأئمة".

وليس هذا هو التناقض الوحيد في هذه الصفحات القليلة.

ماذا أيضا؟

هناك تناقض في المكان أيضا؟

كيف؟

قال الكاتب في ص٧: "كان الفلاحون الفقراء العاجزون عن دفع الضرائب يفرون من بلدهم تاركين أرضهم خوفا من الجلد والسجن، ويذهبون إلى بلد لا يعرفهم فيها أحد، ولا تصل إليهم يد الحاكم الظالم".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هكذا يقولها بكل اطمئنان: "ولا تصل إليهم يد الحاكم الظالم"، وكأن هؤلاء الفلاحون العاجزون قد هاجروا من دولة ظالمة حكومتها إلى دولة أخرى مختلفة، والحقيقة أنهم تركوا قرية في المديرية ليذهبوا إلى قرية أخرى في المديرية ذاتها، فكيف يكون الإقليم الواحد محكوم بنظامين إداريين مختلفين؟

لكنه لا يفتأ أن يقرر ص١٢ وحدة النظام عندما قال: "لكن هذه الفرحة لم تدم طويلا فقد زادت الحكومة الضرائب زيادة كبيرة، وضج الناس وعجزوا عن الدفع ... و لم تنج أسرة الشيخ مبارك من هذه الضرائب ...".

هكذا تجبهنا الحقيقة التي تؤكدها الجغرافيا والسياسة، فلماذا هذا التناقض الظاهر؟ أيكون ذلك للظن بأن هذه قصة تعليمية تقرر من مستوى وظيفي أعلى فلا يعبأ الكاتب بالاهتمام بالصنعة الأدبية؟

لا أدري، ولعلني أدري يوما ما!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٦- إيحاءات تحريف تاريخ التعليم في مصر في قصة "علي مبارك"

أثر سلبي غير مباشر لعبارات أكدتها القصة تأكيدا قاطعا مما يصرف الأذهان عن التفكير فيه.

كيف؟

في الفصل السادس المعنون بـــ"**وزير التربية والتعليم**" يحكي المؤلف خصائص "علي مبارك" التي جعلت الخديو عباس يسند إليه أكبر منصب في ميدان التعليم، ثم يقول المؤلف ص ٨٤: " ... وأنعم عليه برتبة الأمير آلاي وعينه ناظرا للمدارس، فكان أول وزير مصري تولى هذا العمل، وكان من قبل ذلك في أيدي الأجانب يعبثون فيه كيف يشاؤون".

وفي الفصل الثامن الأخير المعنون بـــ"أبو التعليم" يقول المؤلف ص١٠٥: "أسند إسماعيل إلى علي مبارك ديوان المدارس فيما أسند إليه من الأعمال الجليلة ...".

ما نتيجة هذين النقلين؟

نتيجتهما المباشرة أننا علمنا أن العبث بالتعليم المصري كان قبل "علي مبارك"، وأن "علي مبارك" صار أبا التعليم وأنه أصلحه.

وتُنتج هذه النتيجة المباشرة نتيجة أخرى غير مباشرة.

ما هي؟

هي أن التعليم الموجود الآن متصل بما فعله "علي مبارك"، وهذا غير صحيح.

كيف؟

لقد أتى العبث الحقيقي في التعليم المصري بعد "علي مبارك" لا قبله.

كيف؟

لقد أتى الاحتلال الإنجليزي لمصر، وجاء معه بتغريب التعليم المصري كما يقول سيد حسين عبد الله العفاني في مقاله "القس دانلوب وتغريب التعليم في مصر": ولد "دانلوب" في اسكتلندا ١٨٦٠ م، وتخرج من القسم اللاهوتي في إحدى كلياتها. وجاء إلى مصر مبشرًا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٨٨٩ م وعين مدرسًا في مدرسة "سانت أندرو" التابعة للمجتمع التبشيري باسكتلندا بمرتب فرنكات معدودات. وسعى لدى "كرومر" بمساعدة السير "فونكريف" وكيل الأشغال حتى عين مدرسًا للغة الإنجليزية في مدرسة المهندسخانة فالمعلمين الخديوية. ويعد "دانلوب" واضع المخطط الأساسي لتغريب التعليم والتربية وإقصاء الإسلام عن برامج التعليم في المدرسة المصرية.

وكانت أبرز أعمال دانلوب: العمل على محاربة اللغة العربية والإسلام والأزهر، لذلك عمل على اضطهاد معلمي اللغة العربية من الأزهريين، ونشر لواء اللغة الإنجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم، وبذلك أمكنه القضاء على نفوذ اللغة العربية ولقد مضى في ذلك إلى حد أنّه جعل تعليم سائر العلوم كالرياضيات والتاريخ والكيمياء والجغرافيا والرسم باللغة الإنجليزية وضيق على اللغة العربية تضييقًا كبيرًا، وإبطال كتاب "علي مبارك" و"عبد الله فكري" (طرق الهجاء) عام ١٨٨٨م.

إلى غير ذلك مما هو مسطور في تاريخ التعليم في مصر، فهل لم يعلم الكاتب ذلك؟ أم تراه علمه لكنه أهمله لأنه يعلي من "علي مبارك" كما يتوهم"؟

إن كان علمه فلم لم ينبه على ما حدث من محو جهود "علي مبارك" بعد تولي هذا القس أمر التعليم في مصر؟ وإن لم يعلم فلم يتحدث فيما يجهل؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحتويات

١- تلويث القيم في المخرج التعليمي للقصص التربوي..... ٤

٢- المبالغة في رسم شخصية "علي مبارك" زمن طفولته..... ٨

٣- عندما يكون الكاتب تابعا لشخصيته الأدبية ١١

٤- وجه العلمانية في قصة "علي مبارك" التعليمية..... ١٤

٥- تناقض أحداث الزمان والمكان الخارجيين في قصة "علي مبارك" المقررة على السادس الابتدائي..... ١٧

٦- إيحاءات تحريف تاريخ التعليم في مصر في قصة "علي مبارك" ٢٠

هذا الكتاب منشور في